

حزيران بلا قتال

غازي الخليلي*

حرب حزيران/يونيو واحتلال نابلس

صباح يوم الاثنين الموافق فيه الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، نهضت مرتاحاً إلى حد ما، إذ كنت قد نمت بعمق الليلة الفائتة، بعد ليال طويلة سابقة أمضيتها أنا وعدد من الأصدقاء والرفاق ساهرين إلى الساعات الأولى من الصباح، نتابع آخر الأخبار عن احتمالات الحرب، ونناقش ونحلل إمكاناتها ونتائجها المحتملة. تناولت قهوتي وفطوري، وغادرت المنزل متوجهاً إلى كلية النجاح الوطنية في مبناها الجديد القريب من منزلنا، والذي أقامته مدرسة النجاح منذ أكثر من عام على مقربة من قرية رفديا غرب نابلس، وانتقلت إليه حديثاً، وهو المبنى الذي تحوّل لاحقاً إلى جامعة النجاح الوطنية. كنت من ضمن المعلمين المكلفين بالمراقبة في امتحانات الثانوية العامة، والتي كانت في نهايتها تقريباً. عندما توجهت ذلك الصباح إلى كلية النجاح الوطنية، لم يكن يدور في خلدي أن الحرب ستشعب هذا اليوم، وكنت أقرب إلى احتمال تراجعها، اعتقاداً مني أن قرار الرئيس جمال عبد الناصر إرسال نائبه زكريا محيي الدين إلى واشنطن لبحث الوضع، يعني أن القيادة المصرية تتجه نحو تسوية الأزمة، وليس الذهاب إلى الحرب. في الساعة الثامنة تم توزيع الأسئلة على الطلاب الذين باشروا كتابة إجاباتهم كالعادة، لكن قرابة الساعة التاسعة وأربعين دقيقة، وبينما الطلاب لا يزالون منكبين على أوراقهم، جاء من يهمس لي بفرح: "الحرب قامت، وتم حتى الآن إسقاط ٢٣ طائرة إسرائيلية." كتمت فرحتي، وهمست له: "لا تنشروا الخبر كي لا يتشوش الطلاب."

انتشر خبر اندلاع الحرب سريعاً، ووصل إلى مسامع كثير من الطلاب الذين سارعوا إلى تسليم أوراقهم وهم فرحون لاعتقادهم أننا منتصرون، وأنا سنكون بعد أيام في تل أبيب. أخذ الطلاب يتجمعون في ساحة الكلية، وشرعوا يتداولون آخر الأخبار وأعداد الطائرات الإسرائيلية التي سقطت، وكانت الهتافات المعبرة عن الأمل بالنصر تعلو من هنا وهناك، والكل تغمره الفرحة والثقة بالنصر.

العدوان الإسرائيلي صبيحة ذاك اليوم فاجأ الجميع تقريباً، ولم نكن ندري ماذا يمكن أن نفعله سواء كجماهير أو كطلّاع سياسية. غادرت الكلية وأجريت اتصالات مع عدد من رفاقي في حركة القوميين العرب السابقين وبعض الأصدقاء، وخصوصاً من الناشطين سياسياً،

* كاتب وناشط سياسي، من مواليد نابلس في سنة ١٩٤٠، وقيم حالياً في رام الله.

للتدارس فيما يمكن عمله. كان وضع القوى الوطنية والأحزاب السياسية شبه مشلول، إذ إنها جميعاً كانت عرضة لحملة اعتقالات واسعة منذ نيسان/أبريل ١٩٦٦، ولم يكن لدى الجماهير وطلانها السياسية المنهكة جزءاً الاعتقالات السياسية المتواصلة التي تعرضت لها، ما يمكن أن تفعله. اتفقنا على تشكيل لجنة طوارئ من عدد من الأشخاص، انبثق منها العديد من اللجان، واتخذنا من المبنى الجديد لكلية النجاح الوطنية ومبناها القديم مركزين للتجمع والنشاط تناوبنا على المبيت فيهما طوال أيام الحرب. وكنا نتابع أخبار الحرب عبر الراديو ومن مختلف المحطات الإذاعية، وبدأنا نستمتع إلى أخبار متناقضة عن سير المعارك، بينما كان صوت أحمد سعيد يلعلع، كأن النصر بات وشيكاً.

في اليوم التالي، قامت تظاهرة في نابلس توجهت إلى مبنى البلدية، وطالبت فيها الجماهير بالسلاح والذهاب إلى الحدود. ولا متصاص الغضب الجماهيري، وُزعت في ذلك اليوم، العشرات من البنادق من طراز "جي ٣"، تخاطفتها الجماهير بفوضى عارمة، لكن هذه البنادق القليلة، وهي من النوع القديم، لم تكن ذات فائدة في شيء.

في المساء، أدركنا أن الأمور ليست كما تدّعيه الإذاعات العربية، وأصبح الوضع مقلقاً، وبتنا نحرص على سماع الأخبار من مصادر متنوعة، وذلك بعد تأكيد القيادة المصرية أن الهجوم الجوي الإسرائيلي على مطاراتها فاجأها، وأنها بينما كانت تتوقع قدوم الطائرات من الشرق، فإنها جاءت من الغرب. وأوردت أغلبية الوسائل الإعلامية في ذلك اليوم، ما ادّعته من أن محادثة هاتفية جرت بين الملك الأردني حسين والرئيس جمال عبد الناصر تضمنت رصد الرادار الأردني في جبال عجلون لتحرك طيران أميركي معادٍ من الغرب في اتجاه مصر، وقد عززت هذه المحادثة ما دأبت الإذاعات المصرية على ترديده عن مشاركة أميركية في الحرب.

حتى حينه وطوال ذلك اليوم كانت معنويات الناس لا تزال عالية، وكانوا يرفضون تصديق الأخبار الإسرائيلية عن مجريات الحرب على الجبهتين الأردنية والمصرية، وبدأ كثيرون يتحدثون عن تقدم للقوات العراقية لدعم الجيش الأردني، وأن دخول هذه القوات ومشاركتها في الحرب سيقلب الوضع كلياً.

فوجئنا ظهر ذلك اليوم بتدفق المئات من النازحين من منطقة قلقيلية، والذين استقروا مبدئياً في حقول الزيتون في ريفيديا غربي نابلس، وأخذنا نعمل على تأمين بعض المؤن لهم، وعلمنا منهم أن القوات الإسرائيلية احتلت قلقيلية، وأنها قد تتقدم في اتجاه نابلس. لم نصدق هذه الأخبار بداية، إذ كنا لا نزال نعتقد أن الوضع ليس بهذا السوء، كما أن البعض ما زال يأمل بقدوم القوات العراقية، لكن ما إن انتصف النهار حتى بدأ بعض الحقائق عن سير المعارك يتكشف، وخصوصاً بعد الخطاب الذي أذاعه الملك حسين ظهر ذلك اليوم، وتوجه فيه إلى الجماهير يحثها على الصمود والمقاومة. كان واضحاً من لهجة الخطاب ومضمونه، أن الوضع على الجبهة الأردنية انهيار، إلى حد كبير، وأن كارثة ستحيط بنا. لكن على الرغم من ذلك، وعلى الرغم مما أعلنته الإذاعة الإسرائيلية بشأن اختراق قواتها للمواقع الأردنية في القدس، وأن قواتها تتقدم في اتجاه المدينة، فإن الناس كانوا يأبون أن يصدقوا، ولا يزالون يعيشون في أحلام صواريخ القاهر والظافر التي دأبت مصر على إعلانها بصخب قبل الحرب، والتي لم يُطلق أي منها خلال الحرب، وكانوا لا يزالون يأملون بتقدم القوات العراقية، ولا سيما أن البعض كان ينقل عن شهود عيان، أن القوات العراقية شوهدت وهي تتقدم في اتجاه الجبهة. بعد ظهر ذلك اليوم مررت بإخوتي في القرن، وكانوا منهمكين في عملهم، كأنهم غير عابئين بما يجري، لقناعتهم في قرارة أنفسهم بأن النصرات، وبأن ما يُروّج من أخبار عن النجاحات الإسرائيلية ليس أكثر من حرب نفسية لتهيب معنويات الناس. لم أشأ أن أهز قناعاتهم، لكنني قلت لهم قبل أن

أُغادر: "يبدو أن الأمور ليست واضحة بعد، وأن سير المعارك على الأرض لا يبشر بخير". غادرت الفرن وذهبت إلى المقر في كلية النجاح الوطنية، وعلمت من المجتمعين هناك أن مزيداً من النازحين ما زال يتدفق، وأنهم يناقشون سبل مساعدتهم، على الأقل تأمين مواد غذائية ومياه شرب لهم وبعض البطانيات. عندما ذهبنا إلى حيث يتجمعون، وجدنا مندوبين عن الصليب الأحمر بدأوا يمدون لهم يد العون، ويؤمنون لهم بعض الحاجات.

بتّ تلك الليلة في كلية النجاح، وكان الإعتماد تاماً في نابلس، إذ إن التعليمات قضت بإطفاء الأنوار تحسباً من غارات جوية إسرائيلية، وبقينا ساهرين طوال الليل نتابع آخر الأخبار. لاحظنا قلّة البلاغات العسكرية المصرية والأردنية عن سير المعارك، في حين كانت البلاغات العسكرية الإسرائيلية تتحدث عن تقدم قواتها على كلا الجبهتين، وتحقيقها إنجازات عسكرية باهرة، لكن لا أخبار عن الوضع على الجبهة السورية.

كانت نابلس تعيش كأن لا حرب تجري بالقرب منها وعلى مشارفها: المحلات مفتوحة، والناس يمارسون أعمالهم كالمعتاد، يستمعون إلى الأخبار والأناشيد الوطنية، ولا تترحم على تخزين المواد الغذائية. كان الوضع إلى حد ما، كأني يوم عادي: المقاهي مملأة بالرواد الذين يدخلون نراجيلهم بارتياح وبشيء من الفرح، والذين كانوا يتبادلون الأخبار بطريقة لا تخلو من المبالغة، ويستمعون إلى آخر ما استجدّ فيها، وإلى تعليقات أحمد سعيد الحماسية. وكنت أينما أتوجه، أجد الكل يتحدث عن القوات العراقية، ويتبادل آخر الإشاعات والأقوال بشأنها.

استيقظت صباح اليوم الثالث من الحرب (الأربعاء ١٩٦٥/٦/٧) منهكاً، فقد أمضيت أنا وعدد من الرفاق والأصدقاء ليلتنا في مقر كلية النجاح الوطنية، ولم ننم، وبقينا ساهرين حتى ساعات الصباح الأولى نتابع آخر الأخبار، غير قادرين على تصديق الأخبار الكارثية عن انهيار الجبهتين الأردنية والمصرية واحتلال القدس، كما أعلنت إسرائيل. كنت والذين معي، لا نزال نمّي النفس ونبرد أعصابنا المهتاجة بحدوث تطور ما يقلب هذه الأمور الكارثية، وكان البعض لا يزال يُمني النفس بقدم القوات العراقية التي كثرت الإشاعات عن تقدمها نحو الجبهة! عدم ورود أي خبر عن الجبهة السورية لليوم الثالث، سواء من مصادر إسرائيلية أو عربية، أثار بعض الشك لدى البعض منا، وبتنا نسائل بعضنا عن دلالات ذلك.

صبيحة ذلك اليوم الحزين أصبحت أنا وآخرين على قناعة بأن احتلال نابلس بات وشيكاً، ولا سيما عندما علمنا أن العاملين في الإدارات الحكومية والأجهزة الأمنية غادروا، في معظمهم، إلى الضفة الشرقية. لكن على الرغم من هذه الأخبار المحبطة، فإنه لم تنتشر أي حالة من الهلع بين السكان، ولم نشهد أي رحيل، لا كأفراد ولا كمجموعات، فالناس باتوا مستوعبين ما جرى في سنة ١٩٤٨، كما أن معنوياتهم بقيت عالية وثقتهم بأنفسهم كبيرة، وإصرارهم على البقاء كبير، مع أنهم لا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم. وبعض الأفراد ممّن كانوا على صلة بالمنظمات الفدائية، أخذوا يتجولون بين الناس وهم يحملون رشاشات كارلو، أو البنادق التي حصلوا عليها عند توزيعها في بلدية نابلس في اليوم السابق.

قبل ظهر ذلك اليوم تداعى عدد من الشخصيات الوطنية والناشطين السياسيين إلى اجتماع في مصبنة حافظ طوقان للتداول فيما يمكن عمله، وكان ضمن الحضور رئيس البلدية حمدي كنعان، وحافظ طوقان، وعزت العالول، وصالح الدين العنبتاوي، وفيصل كنعان، وفيصل كمال، ولطفي الزغلول، ونايف أبو صفية، وعلي الخليلي، وأنا وآخرون لم أعد أذكرهم، وبعض المذكورين أو المشاركين الآخرين توفاه الله، بينما لا يزال البعض الآخر في قيد الحياة. تداولنا فيما يمكن عمله،

إزاء الاحتمالات التي باتت مؤكدة باحتلال نابلس، واقتراح البعض أن نجنب المدينة الدمار وعبث الاحتلال، وأن يتم استسلامها رسمياً، لكن الأكثرية رفضت هذا العار لمدينة نابلس المعروفة تاريخياً بمقاومة المحتلين، والتي استحققت بذلك، وعن جدارة، لقب جبل النار، إذ يستحيل على من تحمل هذا اللقب الذي يشرفها، أن تستسلم، فاتفق رأي المجتمعين على تنظيم المقاومة في المدينة مهما تكن النتائج. وأذكر أنني قلت للمجتمعين: "يمكننا أن نقيم فخاخاً من الألغام في الطرق المتوقع أن تسلكها القوات الغازية، وأن ننشر بعض المقاومين على هذه الطرق، كي يتصدوا لها ويعوقوا تقدمها على الأقل، لكننا نحتاج للقيام بذلك إلى متفجرات، كما أن الإخوة من المتدربين من المنظمات الفدائية سيقومون بنصب هذه الفخاخ." قال أحد الحاضرين: "يمكن إحضار كمية من المتفجرات الموجودة في قيادة المقاطعة (مركز تجمع الإدارات الحكومية) شرقي نابلس"، فوافق الجميع على اقتراحه، وعلى الفور جهزنا سيارتين للذهاب إلى قيادة المقاطعة: سيارة صلاح العنبتاوي وسيارة فيصل كنعان، بمرافقة عدد من الإخوة الحاضرين، منهم أنا وعزت العالول ولطفي الزغلول وفيصل كمال، وآخرون. غادرنا مصبنة حافظ طوقان التي تقع في قلب مدينة نابلس إلى جانب ما يُعرف حالياً بالدوار، واتجهنا شرقاً إلى قيادة المقاطعة عبر شارع الملك فيصل. ولم نكد نخطى المقبرة الشرقية، ونصل إلى أمام مخرطة رثو، حتى فوجئنا بثلاث مدرعات تقف في وسط الشارع على شكل مثلث وتقطع الطريق. كان العشرات من المواطنين واقفين على جانبي الشارع، من دون أن تتعرض لهم المدرعات، ومن دون أن يدركوا، على ما يبدو، حقيقتها. كنت في السيارة الأمامية، فتوقفنا لدى مشاهدتنا المدرعات، والبعض ممن كان في السيارة صاح بفرح: "هذه قوات عراقية"، لكن ما هي إلا لحظات حتى صحت وقلت: "هذه مدرعات إسرائيلية، انظروا إليها، ترون على مقدمتها حرف 'تصادي' العبري الذي يرمز إلى الجيش الإسرائيلي 'تساهل'، فقد كنت أعرف القليل من اللغة العبرية التي درستها من خلال دراستي للتاريخ في جامعة دمشق. كان هول المفاجأة علينا كبيراً، فأشّرنا إلى السيارة التي خلفنا بالرجوع، وعندما حاولت سيارتنا الرجوع، وجّه الجنود الإسرائيليون أسلحتهم نحونا طالبين منا النزول من السيارة، والوقوف إلى جانب الطريق وعدم التحرك. نزلنا جميعاً من السيارتين ووقفنا على جانبي الشارع، مع الواقفين من المواطنين.

دقائق قليلة مرت، وإذا بالوضع ينفجر من حولنا، إذ انطلقت صليات من رشاشات المدرعات لا أدري إلى أين كانت توجه نيرانها، ثم سمعت دوي انفجار قوي علمت فيما بعد أنه قذيفة دبابة أصابت مبنى البنك العربي على الدوار. انتهزت هذه الجلبة وغادرت موقعي راكضاً في الاتجاه الذي يؤدي إلى داخل المدينة، وظللت أمشي والذهول يسيطر عليّ حتى وصلت إلى باب الساحة... هذأت نفسي قليلاً، على الرغم من أن حالة الذهول لم تفارقني، لأنني لم أكن أتوقع قدوم قوات الاحتلال من الشرق. سيطرت على ذهولي، وبدأت أستوعب الوضع. نظرتُ حولي، المحلات فاتحة كعادتها، وحركة المواطنين عادية لا يدرون ما يدور على مقربة منهم، وأن القوات الإسرائيلية باتت في المدينة. تركت الناس بحالهم من دون أن أعجمهم أو أثير هلعهم، وواصلت سيرتي في اتجاه الفرن حيث كان إخوتي يعملون. كانوا كالعادة منكبين على عملهم يتمازحون ويضحكون. شقيقي حسن بادرنى بالسؤال: "هل صحيح أن القوات العراقية باتت في نابلس، وأنها تتوجه نحو الحدود؟" كدت أنفجر من القهر والألم، لكنني وجدت نفسي أضحك، وقلت له والابتسامة تملو وجهي: "يبدو يا أخي أن هذه هي الكذبة الكبيرة التي انطلت علينا جميعاً، لا قوات عراقية ولا من يحزنون. ما شاهده الناس وما شاهدته أنا، هو قوات إسرائيلية وليس قوات عراقية، والقوات الإسرائيلية الآن في قلب مدينة نابلس تقف في منتصف شارع الملك فيصل وستتقدم إلى داخل المدينة. حاولوا أن تنهوا عملكم سريعاً وعودوا إلى

البيت، لأن الطائرات الإسرائيلية تجوب سماء المدينة وتطلق رشاشاتها على المارة." وطلبت من إخوتي الصغار، محمد وفرج وعطا الله، الذين كانوا في الفرن التوجه إلى البيت فوراً، وأن يتجنبوا المرور في الشارع الرئيسي خوفاً من الطائرات التي تجوب سماء المدينة، وأن يسلكوا الطرق الفرعية. وما إن سمع كلامي أحد الأشخاص، وكان يحمل رشاش كارلو، حتى صاح في وجهي: "طابور خامس"، وكاد يطلق النار عليّ لولا أنني هذأته، وقلت له بهدوء: "أذهب إلى شارع الملك فيصل لتتأكد من الأمر." أرخى سلاحه وغادر مسرعاً.

غادرت الفرن وتوجهت إلى شارع الشويطرة لاستطلاع الوضع. بعض المسلحين القلائل كان يجوب الشارع، وبعض الدكاكين والمحلات بدأ يغلق أبوابه، لكن من دون هلع أو ذعر. خبر تقدم القوات الإسرائيلية بدأ ينتشر على ما يبدو، والناس بين مصدق وبين من لا يقدر أن يصدق. احتمال قدوم القوات العراقية لم يفارق مخيلة الناس، ربما كي يهربوا من أي شعور بأن كارثة ستحقيق بهم، أو ربما تعلقاً بأمل باحتمال النصر، والعودة إلى بيوتهم مكللين برايات النصر، كما كانوا يتوقعون.

القوات الإسرائيلية استكملت تقدمها نحو وسط المدينة، وجرّت اشتباكات محدودة مع بعض المقاومين في منطقة الجبل الشمالي (عيبال) حيث استشهد قسم منهم. وتقدمت دبابات إسرائيلية عن طريق طوباس، وتمركزت في منطقة المحاجر في جبل عيبال، وشرعت تُمطر القوات الأردنية المنسحبة والتي وصلت إلى وادي التفاح غربي نابلس بقذائفها، وكانت طائرتان إسرائيليتان تحومان في سماء المدينة وتغيران على القوات الأردنية التي تمت محاصرتها في وادي التفاح.

بعد ساعات قليلة عدت إلى البيت، ومن هناك شاهدت الدبابات الإسرائيلية المتمركزة في منطقة المحاجر في جبل عيبال، وهو الجبل المواجه لجبل جرزيم حيث يقع منزلنا. وكانت ثمان دبابات تطلق قذائفها على وادي التفاح بمؤازرة طائرتين إسرائيليتين كانتا تحومان في سماء المدينة. وجدت والدتي والنسوة جاراتها مجتمعات في البيت وهن يقرأن سورة ياسين، ويواصلن ترديد الآية، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (سورة يس، الآية ٩)، وذلك، كما قالت لي الوالدة لاحقاً: "لأن هذه الآية الكريمة دعاء لله تعالى كي يعمي عيون اليهود عن الجنود المحاصرين الذين كانوا يتعرضون لنيران شديدة من الدبابات الإسرائيلية المتمركزة في المحاجر، ومن الطائرات الإسرائيلية."

أكملت القوات الإسرائيلية احتلالها للمدينة، وأعلنت منع التجول، وطلبت عبر مكبرات الصوت التي جابت شوارع المدينة، أن يسلم المواطنون سياراتهم في الصباح، وأن يتركوها والمفاتيح فيها في الساحة أمام مبنى قيادة المقاطعة، وكل من لا يسلم سيارته ستتم مصادرتها.

التقينا في المساء أنا والدكتور فيصل كمال والصديق نايف أبو صافية وأخي علي لتدارس الوضع وما يمكن عمله، وعبرنا عن قلقنا إزاء احتمال ألا يكون أرشيف الاستخبارات الأردنية الذي يضم أسماء العديد من الناشطين السياسيين قد تم إتلافه، وأنه إذا ما استولت عليه القوات الإسرائيلية فإنها قد تقوم بحملة اعتقالات استباقية احتياطاً. وعليه قررنا الصعود إلى الجبل، والمكوث هناك بعض الوقت إلى أن تتضح الأمور.

أخذنا طريقنا في جبل جرزيم في اتجاه قرية بورين التي كان لنا فيها بعض الأصدقاء الذين يمكن أن نمكث عندهم بعض الوقت، وكان معي بندقية "جي ٣" التي حصل عليها أخي حسن عند توزيع البنادق على المواطنين. واصلنا سيرنا في الجبل صعوداً وفي اتجاه الشرق، وبينما كنا نأخذ قسطاً من الراحة،

شاهدنا خيالات تتحرك أمامنا، فلم نميزها في العتمة التي تغطي المنطقة، لكن سرعان ما ميزناهم، وعرفنا أنهم جنود أردنيون. صحنا بهم: "لا تخافوا نحن أصدقاء"، فاقتربوا منا وعرفنا أنهم من الجيش الأردني، وكانوا متعبين وطلبوا أن ندلهم على الطريق إلى الضفة الشرقية. ركبنا بهم، وعرفنا منهم أنهم من القوات الأردنية التي حوصرت في وادي التفاح. ودّعناهم بكل حب وأرشدناهم إلى الطريق. مكثنا في الجبل حتى الصباح، وخلال مكوثنا أعدنا النظر في قرارنا بالذهاب إلى بورين، ورأينا أن من الأفضل أن يعود كل منا إلى موقعه، وأن نبدأ بتنظيم المقاومة ضد القوات الإسرائيلية المحتلة.

في الصباح عدنا. نزلنا من الجبل إلى قرية تل، وتوجهنا من هناك إلى منزلنا الذي يقع على أول الطريق إلى القرية، وعلى بعد نحو ثلاثة كيلومترات منها. القوات الإسرائيلية، على ما يبدو، لم تنتشر خارج المدينة بعد. عندما وصلنا إلى منزلنا شاهدنا الجنود الإسرائيليين يجولون في ساحة مبنى كلية النجاج الذي يقع على بعد عشرات الأمتار من منزلنا. الرفيق نايف أبو صفية توجه إلى منزله القريب، أما الدكتور فيصل كمال فذهب إلى مستشفى الدكتور أحمد الطاهر حيث يعمل، والذي يقع على بعد أمتار قليلة من منزلنا.

حالة من الذهول والألم تسيطر على الجميع. والدتي بدت مشغولة بمصير ابنها الأمين الذي استدعي إلى الخدمة قبل الحرب بأيام قليلة، وسألت إذا ما عرفنا عنه شيئاً، فقلت لها: "لا تقلقي يمّه، إن شا الله هو بخير، وسأستقصي أخباره من بعض رفاقه الذين كانوا معه، والذين عادوا من الجبهة." عندما تأكدت أن ثمة احتمالاً كبيراً في أنه موجود في الأردن، تسلمت بعد أيام قليلة من الاحتلال إلى هناك حيث تقصيت الأخبار عنه في عمّان، فعرفت أنه موجود في معسكر "خوّ" قرب مدينة الزرقاء، فذهبت إلى هناك والتقيت به، واستحصلت له من الضابط المسؤول على إجازة لـ ٢٤ ساعة. بعد ذلك، تسلمت وإياه ليلاً عائدين إلى نابلس.

بعد نزولنا من الجبل، بدأت مع بعض الأصدقاء والرفاق القدامى من حركة القوميين العرب، نتابع مجريات الأمور ونناقش ما يمكن أن نقوم به لمقاومة الاحتلال. وفي لقائي مع عدد من الأعضاء السابقين لحركة القوميين العرب، قررنا إعادة تنشيط جميع الرفاق، والاتصال بهم مجدداً لتنظيم بعض أشكال المقاومة الشعبية، حتى لو بأشكالها الأولية التعبوية ضد الاحتلال. وشكلنا لجاناً للمعلمين كان من ضمنها أنا والمربية يسرى صلاح والمربية نوال التيتي ونايف أبو صفية وآخرون، وأصدرنا أكثر من بيان باسم لجان المعلمين، دعونا فيها الجماهير إلى مقاطعة المحتلين الذين أخذوا يتوافدون بأعداد كبيرة إلى مدن الضفة الغربية، علاوة على توجيهات تعبوية، وحضّ للجماهير على الصمود، وأن مصير الاحتلال لن يكون إلّا إلى زوال. كما تم تكليفي بالذهاب إلى عمّان وإجراء الاتصال بقيادة حركة القوميين العرب في الخارج، بعد أن كنت ورفاق آخرون قد قطعنا صلتنا بالحركة بعد اعتقالات سنة ١٩٦٦.

تسلمت إلى عمان للمرة الثانية في أواخر تموز/يوليو ١٩٦٧، حيث التقيت بعدد من أعضاء الحركة، منهم الرفيق مصطفى الزبري (أبو علي مصطفى) الذي كان قد استقر في عمّان وفتح مطعماً صغيراً في جبل اللويبة. لم يكن أبو علي مصطفى قد حسم أمره، أو قرر ماذا يعمل، وخصوصاً أنه كان قد قطع صلاته بالحركة مثل آخرين كثيرين بعد اعتقالات سنة ١٩٦٦، فتشاورنا في الأمر، وفي ماذا يمكن عمله في ظل الأوضاع الجديدة، واتصلنا برفاق آخرين من أعضاء الحركة، واستقر الرأي على ضرورة معاودة الاتصال بقيادة الحركة في لبنان والوقوف على توجهاتها، وما يمكن عمله لمواجهة الاحتلال الإسرائيلي.

عدت إلى نابلس على أن أعود بعد أيام قليلة إلى عمّان مرة أخرى، فالتسلل عبر الحدود كان حتى

ذلك الوقت سهلاً، ذلك بأن القوات الإسرائيلية المحتلة لم تكن قد أحكمت قبضتها على الحدود بعد، وكان كثيرون ممن كانوا في الخارج قد بدأوا يفدون إلى عمان، ثم يتسللون عائدين إلى أهاليهم. كنا خلال العودة نعبر نهر الأردن ليلاً من مناطق مياهاها ضحلة بواسطة جرار زراعي أو مشياً، ونمكث بعض الوقت حتى الصباح الباكر في إحدى المزارع القريبة، أو نواصل المشي ليلاً إلى أقرب قرية في وادي الفارعة، ومنها نأخذ إحدى السيارات إلى نابلس وغيرها من المدن والقرى.

بعد عودتي إلى نابلس، جددت الاتصال بالرفاق، وأعلمتهم بما جرى معي، واتفقنا على تشكيل قيادة مؤقتة مني ومن عدد من الرفاق الآخرين، من أجل إعادة الاتصال بباقي الرفاق وتنظيم أوضاعهم. وخلال وجودي في نابلس وصلتنا أخبار بأن عدداً من الطلبة الذين يدرسون في الخارج بدأوا يتوافدون إلى عمان بناء على تعليمات من قيادة الحركة، لتدريبهم وإعدادهم للعمليات المسلحة التي ستبشرها الحركة قريباً، كما علمنا أن قيادة الحركة طلبت من ضباط وكوادر من جيش التحرير الفلسطيني ممن كانوا على صلة بها، التوجه إلى الأردن للغاية ذاتها.

كان الرفيقان أحمد خليفة وفيصل الحسيني من أوائل الوافدين إلى الداخل، وقد أقاما في القدس، فتوجهت إلى هناك حيث التقيت بهما، وتباحثنا في الأوضاع المستجدة وما يمكن عمله لإعادة بناء تنظيم الحركة والإعداد للمرحلة الجديدة.

... وهكذا بدأ مسار جديد في الأراضي المحتلة، كان له عنوانان: الصمود ومقاومة الاحتلال. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

اليد ترى والقلب يرسم سيرة تمام الأكل وإسماعيل شموط

تمام الأكل
تحرير غانم بيبي تقديم الياس خوري

٢٨٤ صفحة ١٢ دولاراً